قصة قصيرة بقلم برهان الخطيب

رجل وامرأة .. في موكب لا ينتهي

« بينـا اليهـود اشتفت
واحرارنا الجتفت .. »
ـ من مرثية رددهـا العراقيون عام١٩٥٦ ـ

الموكب

بدأ الزحف على المدينة منذ اكثر من ثلاثة ايام . لم تنقطع السيارات ، صغيرها وكبيرها ، قديمها وحديثها ، لا في النهار ولا في الليـل . جاء الكثير منهم مشيـا على الاقـدام ، من المسيب ، من السدة ، من الشامية ، ومـن العاصمة بغداد نفسها ، من الكاظمية ، الشواكه البياع ومناطق ومدن وقرى اخرى كثيرة . قطعوا عشرات الكيلومترات تحت شمس لاهبة هي ارحم على اي حال من تلك النار الظالمة التي صلت سيد الطيبين بلهيبها الغادر المسموم في صحراء الخيـانة والعطش . جماعـات ، جماعـات ، يركضون ، يهرولون ، يمشون، يتابعون الركض، حفاة ، حاسري الرؤوس ، بشاميغ مهدلة على الرقاب ، الفدية ، دشاديش ، رجال ، نساء ، شباب ، صبيان ، شيوخ ، وعلى مشارف المدينة كانوا يسفحون دموع الحرقة والالم .

ارصفة الشوارع اصبحت مسكنـا للـزوار القاصدين مراقد النور الـذي يغشي ظلمات الروح فيمنحها الوضوح والامان ، والسـار الى الهدم طو ل مدمم بالزحام ، فمن يجود الكريم على الانامل بلمسة من هداه . والطرقات مغلقة بالناس وكل ما يقـدم من بعيد يتربث عند مشارف المدينة ، فتعود الوسائل الى طرقهـا لتجلب المزيد ، وسـائل المتجولون عن جزء الازقة التي لـم يحتلوه بعد .

في البيوت يحتشد الناس . وتشع المصابيح نورا تتوسل بسببه ظلمة الطيبين، والسواد يغمر مفترات المواكب كالحزن في قلب الثاكل الحيران .

موكب عزاء الجامعين ، موكب عزاء النعيس ، موكب عزاء الحر الصغير ، موكب عزاء الكاظمية، الطاق ، الشامية ، الحي ... مواكب، مواكب، وقرب الابواب تضطرم النار تحت قدور الصفر الكبيرة كالشوق في نفوس المظلومين الى طلعة العادلين . والرجـال يجتمعون فـي الاحواش ، يكشفون صدورهـم ، كثة الشعر ، ويتحزمون باردان الدشاديش السوداء حول خصورهم الناحلة . يرفعون اذرعهم المشدودة ، النائفة ، نحو السماء ويهبطون بهـا حيث القلب الشاكي الكلوم .. مظلوم !!..

ولا يكفون الا عندما يرشح الدم من موطن الالم، يصبح العذاب واحدا ، يصبحون انذاك على مقربة من اقـدام السيـد المظلوم ، يلمسون جراحه ، ويلمس جراحهـم ، بطيب الالـم ، وطيب الشهادة ؟

لا مكان ، لكن المدينة تسع دائما وتحتضن القادمين الجـدد ، آتين كالسيـل . الارصفة للناس . عدوا حلقات . تقاسموا فيما بينهـم الخبز والملح والطماطم والبطيخ . وناموا تحت سقوف البنايات ذات الطابقين ، الثلاثة طوابق. اطفالهم لعبوا سوية امامهم وسط الشارع ، لا عربات تمر ، وعندما كانوا ينتاجرون يوسدونهم احضانهم فينامون .

تلامع النصال في الفجر الابيض كالشفـاه التي يبسها القيظ والعطش . وبرق معادنهـا مثل العيون اذ جوبهت بالخيانة والغدر والمتاجرة بالعصر . وتهوي على رؤوس المكفنين بالبياض . والعدل المهدور في صحراء الالم والشهادة يحترق في الذاكرة والذكريات .. فلسمحي يـا نفس لومتك وشكوكوالجبهي جماحنوجرحك الملتهب بالم الزمن . ستقبل الرؤوس الحليقة ضرب النصال كالرحمة ، فلعل الالم يشفي الالم، ولعل ما فـي الروح يتصاعد مع ايقـاع السخط نحو السماء فيحكي لها عما في القلوب الكلومة ..

.. نطوط !.. نطوط !.. حيدر !!.. نطو .

تأتي النداءات من خلف حدود المدينة ، تعبر سطوح البيوت كارتعاشات الريح . يهرع الاولاد اولا الى الاسيجة الحجرية ، يضعون ايديهم على نهاياتهـا ، صيغة بجص خشن اسمر ، ويتصنتون :

الموكب !..

يخرج اهاليهم من خلف الستائر يمسحون آثار النوم عن وجوههم ، يتصنتون ايضا . ينحدر ، في صمت ، سيل الناس من البيوت الى الطرقات قاصدين شارع العباس . هنـاك يصعب البحث عن موطىء للاقدام ، والعثور على مكـان للتفرج في شرفة او غرفة مطلة يكاد يستحيل . وفـي انتظار المواكب ، يأخذون اقداحهم المعدنية ويذهبون الى البيوت القريبة والى الفرات ، يجلبون لاطفالهم التمّن والمرق ، وفي بعض الحالات ، لبَن حليب وزردة صفراء او بنية موشاة بالدارسين . يأكل الاطفال ما في الاقداح سريعا ثم يضعونها على رؤوسهم كخوذ الجنود القساة الذين غدروا اهل الحسين امام الحضرة . تعبر معظمهم الشارع طلبا لماء السبيل المثلج المعطر بماء الورد ، وتمر عربات الباعة عجلى تحسبا لقدوم المواكب .

في وسط الساحة ، عند مظلة شرطي المرور المرتفعة ببضعة درجات عن الارض تجمع مدنيون كثيرون وشرطة وجوههم قائمة . وتعالى صوت من ميكرفون في حوش قريب يدعو الرجال لكشف الصدور والتهيؤ لبـدء موكب العزاء . ارتص الناس على الارصفة . وسـالت صيحـات هنا وهنـاك ..

.. يـابووو .. بابووو .. يـا ..

ـ انهدم ، العام الماضي ، بيت لكثرة مـا تجمع فيه الناس ..

لم يكن يبدو في الحول غير وجوه الرجـال السمر تبرز من بين امواج البشر بملابسهـم السوداء تزخر في بحر الشارع ، وعيون عميقة كليل المحرومين تتطلع من خلف شقوق العباءات كمن تبحث عن معالم مفقودة ، ولما لـم ترد عليه ، التصق بها . اضاف متوجهـا بنظرته نحو انحناءة الشارع حيثمطلع المواكب القادمة :

ـ لكل عام حادثة . والافضل الابتعـاد عن هذا الزحام الشديد .

ابتعدت عنه قليلا ، لكنها ظلت تلازم مكانها ، فـي الفيء ، قـرب العمود المرتفع من حافـة الرصيف حتى سقف الطابق الثاني المحتشد بالناس . همس شيئا ما لها ، الا انهـا اشرأبت بعنقها وتطلعت نحو الساحة ، ملتقى الشوارع ، جـاء شرطة خيالة اخـرون ، فصفعت حوافـر جيادهم ، ورابطوا عند مظلة المرور . اقترب منها ثانية بحذر . رمقها بنظرة جانبية . حاول النطق ببضع كلمات ، ولكن صوتـا خشنا انطلق من ميكروفون لا مكان له على اليمين ، يهتف بلهجة محذرة ، جعلها هادئة :

.. انتبهوا يا ناس واحذروا الهدامة و ..

تنطلق الصوت على الاغلب من تحت المظلة ، وسط الساحة ، حيث تلهى عنه بالنظر الـى هناك . عدل وضع عمامته على راسه ودنى منها متسائلا هو الاخر بين طلائع المواكب التي بدت قدماتها في نهاية الشارع .

الرجل :

بارك الخلاق في صنع هذه العيون ، فمن ينال نظرة منهما يرتوي ابد الدهر ، واسعـة كالروح ، عميقة كالرغبة ، سوداء كالحزن القديم في هذا اليوم . لله كم في هذا الحشـد من النسوة العطشات ، ما تكـاد تلمس الواحـدة منهن حتى تجري الرعشة في جسدها كالتيار ، كان عمرها ما لمست ولا رأت رجلا . ولولا هـذه اللعونة على راسي لكنت افعل العجائب ، اجرها من يدها واسحبها الى الدروب الضيقة حيث الغرفة الصغيرة المختفية تحت الارض ، لافعلن بها ما لم يفعله ابليس ببني ادم . تعرف امواهين جيدا ، رغم ان واحدنـا لا يكاد يقرب منهن الا سوم نزدحم حضرة الطاهرين ، ستحول انـذاك المستحيل الى ممكن ، وبكلمة واحدة ، نزبهـا وتعرف اصلهـا ومعدنهـا وحاضرهـا ومرامهـا وملاعبها في الظلام . يصبح الخطو انذاك في بستان جميل تعرف كيف ينبغي توجيه القـدم . ولكن الزحام هنا غـابة تجهل مسالكهـا فكيف يمكن الاقدام والتمهيد .

تقترب منها ، تبحث بيدك الحـارة وعيناك تتطلعان ، حل الاخرين ، بعيدا حيث تأتـي المواكب ، فلا تلمس غير نسيج عباءتهـا البـارد الناعم يتزلق هدرا بين اصابعك كأنسام الصبا اذ تقرب في ظلام العمر . واذ لا يردك ضربة سريعة من معصم او كوع ، تتثبت يدك كالغريق فيمـا بين طيات البريسم الاسود ، فتفور هباء مرة اخرى في فيضان اليأس والرغبة المحبطة والقتل. وتدنو سين الزحـام نحوها اكثر بتوق صدرك الظمآن منذ الازل الى لمسة من كفها الريان ، عصرة ضاغطة ، لقاء رحيم ، لعل صدا السنين المتراكم ينجلي وتتصل بالله فتفتح لك السماوات ابوابها العليا الرحيبة .. يجرك صمتهـا نحوها اكثر ، تلتصق بها ، يلامس فخذاك فخذيهـا ، وحريقك فـي الاعماق يضطرم كصوات النسوة حولك في كل مكان ، تنتقل هي الى الجانب الاخر من العمود . لكنها لا تغادره تماما ! لماذا ؟.

وتقول لها بصوتك المتردد الخفيض :

ـ عندي شرفة للتفرج اصلح من الوقوف هنا .

عجيب ! لا تهمها الشرفة ، فلا ترد عليـك ولا تبتعد ، تشتهي وتستحي . وعندما تميـل اليها تطعنك بنظرة تنفذ حتى القلب . عينهـا خلال شق العباءة ليل وحشي لا يأمن الطـارق دربه فيه . ترتعش يدك كالغصن اليـابس ، يهسهسها نار الشوق ، تمتد نحوها رغما عنك ، كأنك جزء منها لا هي جزء منك ، تتغلغل حول خاصرتها، تبحث عن طوق ينجيك تلمس اصابعك اشباح ملابسها الداخلية .. الويل لك ! والحمد له ، للخالق رب المعجزات !

تتباعد كالخجلى ، خطوة فخطوتين ، لكنهـا لصق العمود لا تبارحه ، قريب امرك يـا بنت الناس : المكوث هنا لا يصلح . انتباه البـاطل كثيرون . والاجدى ان تأتي ..

ـ يرحم والديك ، اتركني والا الم الناس عليـك !

عفوك يا ربي ، سامحنا واغفر مـا نرتكبه مـن ذنب ..

ـ يا بنت الناس . حرام عليك اساءة فهمي . ما القصد الا صالحك .

التفت الناس اليكم ، فاحذر ان يرفع صوتك اكثر . وتمسك بالصمت وبالصبر ..

قريب امرك يـا انت ، الساحة امامك والشارع ، فـاذا لا يعجبـك امري فلمـاذا لا تمضين الى ستقر . تحب المراة ان توهم ، في البدء ، بالشرف وبالستر . تريد منك مطاردة ، والسعي اليها والجري فاذا ما بلغ اليك التعب، رمتك بلحظ من خمر ، فتواصل طمعـان فـي هتك الستر ، وتمنحك بعـد مطال الستر ، احلى وعد واشهى ثمر . فتحلى بالصبر و .. بالمكر .

ـ يا الله . بان الموكب فتقدم لك عمري .

وعندما يجيء الموكب يحتدم الزحام ، فـلا يبقى محظور ، ولا يميز عاصر من معصور . فتقدم يا موكب . وتحـدث معها ، فلعل من تـارك ، تلظى وتلهب .

ـ يا بنت الناس ..

اللعنة عليك يـا مذياع ، تهرف باللغو وبالسامة !

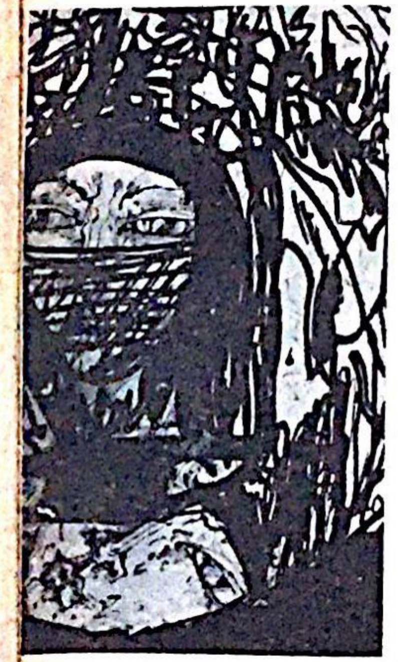

.. انتبهوا يا ناس واحذروا الهدامه ..

ادنو منها ، لا تهيب ، مد يدك ، وسـرى كيف من الرغبة هي تنتحب .

سبحان الخلاق الاعظم ، تنفر منك ، ولكن لـن تسلم ، من عبث اصابعـك الدموية . اعبث بالخصر وبالابط وتغلغل حتى الصـدر ، والى النحر ، افعل ما شئت ودع ، جسدا تلوى كالبدر اذ تعكسه موج البحر ..

.. ما هـذا ؟! سبحان الخلاق الاعظـم ! يعلمك بما لـم تعلم ..

هتفت غاضبة :

ـ الم الناس عليك يـا هذا ؟

ـ تجلى سبحانه وتكرم . ما تخلين يا بنت الناس ؟ ومحرم ، لو تسمعين ما اقول لك اسلم .. ويضيع الهمس بين نواح الناس ولغو المذياع وصدى الترديـدات ..

ـ والله الم الناس اذا لا تمضي !

ويقع الطير حبيس الفخ . فالويل لك يـا محترق الرغبات :

ـ عرفت ما تحت الابط ، فهـات مـا شئت من الصيحات ..

ـ جبان ، تمضي والا ...

ـ هيهات يا بنت الابالسة . ستمضين امامي حيثما اشر ، والا ..

ـ اصيح ؟

ـ اصغي اليك .

ـ اصيح ؟

ـ انني انظر ..

المراه :

كجلد السياط تمضي اللحظات .. والموكب بعيد فمتى يبدو لمع الاكتاف متوهجا في حمام الشمس . والكلب اذا شم رائحة الطريدة فكيف يمكن لها ان تسلم من انيابه ؟

يظل يحوم حولها ، يتعقبها ، يطاردها ، حتى يحاصرها بانتظار سيده الادهى . فما الذي بدا وجعله يتعقبني ويلاحقني من بين مئات النسوة ، والوجه لا يكاد يبين منه الا العين والجبهة يحجبها سواد الستر ، والخطو موزون ، والقدم لا يظهر منه حتى الكعب .. في الاول ، خلت الامر مصادفة ، قدم عجلى تحتك بقدم مجهوله . لكن الامر تطور ، يبحث يده عن شيء ما عندي، وفي الستر ، تعبث اصبعه بالخصر !

هل كان اجدى لو صرخت به امام كل الناس ، لو ضربته بمرفقي في صدره بقوة ، لربما كان قد ابتعد ولربما كان قد حاول الانتقام ، فمن يعرف هؤلاء اللئام ، ومن كان سيصدقني انذاك وهذه الجبلة على راسه الصون ، ومن كان يأمن ما سيحدث وانت لا تعرفين بالضبط قصده ومرامه . وانت تحملين تحت ابطك ما تحملين .

مثل المكبوب ، وانت لا تشعرين ، نسج حولك شبكة من الظنون ، لا سبيل الى تمزيقها وما دمت لا تستطيعين مغادرة هذا العمود اللعين فلا مفر الان من المداورة والمناورة ريثما تتضح الامور . ويدوم هو حولـك كرياح الطاعون ، يقع كالمصروع ، لا تهمين ما يريد وما تقول ومـا ادركت الا حينلامس بحذائه المشنجين المصالين ردفيك ، فانتبهت ، ودرأته عنك لكنه كالمصيبة يفرش ظله اينما تبتعدين . فما يمنع يدك مـن الانطلاق لتهوي بها على وجهه المبلد غير ذلـك الدرع الذي يضعه على راسه يحمي نفسه به من شكوك الاخرين ، وما يمكن ان يصدر من تقولات لو حدث ان تعطيها امام كل الناس . وبعـد ، ما الذي يمكن ان تعطيه وهو لما يزل كلبا يحوم حول طريدته المقيدة بضرورة البقاء لصق هـذا العمود ، والموكب تتقدم بطيئا كقـدر مؤجل محتوم . وكيف يمكن تدارك نهش المخـالب وهو يعوي الان مهددا بالفضيحة اذا لا تطيعيه وتذهبي الى حيث يشاء ؟

محتدما ، يقول :

ـ نبهتك مرة ، وقد اعذر من انذر !

ـ فرغتك ؟

صوتك يرتجف ، والخوف يزيد من شراسته . يتسلط هو ويشمر :

ـ تأتين معي ، ان لا طوعا ، فبامر .

ـ مجنون !

ما عاد زحام الناس يقلقه ، وتعدى حديث السر الى الجهر :

ـ الطاعة والا ويل الفضح ، ويل لـم يذكر في سور او سفر ..

المجنون ! ماذا لو نعطها ، وكيف يمكن تدبر الامر ؟ ماذا لو قلت له : يـا احمق انفعل هـذا ببنت العم ؟ فماذا لو طلب كشف الوجه ، او ذكر الاسم ؟ اولعلي ابعه فاحتال في الدرب ، اموه ، او اهرب ! او اسحبه حتى درب مغلق ، ادفعه في مدخل بيت اسود ، ارد الباب عليه ، والوذ قبل صباح النجد .. لكن الموكب جـاء ، فتدبري امر الوغد . واحسبيني لا يمكـن تبرك مكانك هذا والا ضاع ما عد وتحسد . النـذل ، تلتصق بي كالابرة ! ادفعه فتعاود الالتصاق بلا خوف ، مؤكـدا ، والنـاس راحوا يستقبلون بانظارهم قـدوم المواكب . سيماتي معهم . ترتفع اصواتهم الخشنة نحو السماء كسيوف مشهرة محتجة .. ابتعد عنه ، يقترب مرة اخرى ، غير هياب . واثق تماما ، اصابعه على نحري ، قـادر عـلى خنقي في اية لحظة .. اصده ، فيهتف كأني اسلب منه حقـا صدورا :

ـ يكفي ! لافضحتك والله ان لم تطاوعيني .

والمكرفون لا يكف عن اللغو والترديـد .. يا ناس احذروا الهدامه .. ومراثي المواكب تتعالى فوق نحيب الناس وصـاحهم . وتأتي الدفعـات كموجات الماء ، فهـل اصرعه بضربة على قلبه اللئيم واترك كل شيء للرياح ؟.. ولو يتحول ضرب الرجال على صدورهم في حلقات اللطـم الابية مع المواكب الى صفعات لا تنتهي على وجهه فهل يكفي هـذا للشعور بالارتيـاح ، ويهف هامسا ، والغضب يبلغ به منتهاه :

ـ لاخر مرة ، تمشين امامي والا اصيح واشيـا .

والنتيجة ، كيف يمكن مواجهة اوغاد كهذا ؟.

ـ .. طيب . انتظر لحظة ..

واذا جاء هو مع الموكب ، تتسلل طيعا بعيدا عنه ، بابك حيث عمود الموعـد . فهل تغفل عيون الكلب طريدته ؟

الموكب تتقـدم ، وترتفع الايـدي هناك فـي الشارع كغابة جردها خريف القفر مـن الاغصان الصحة والصـافية ، تهبط بسرعة ملتاعة على الصدور المعرية تحت الشمس فتلطمها بقوة كأنها تصفع اشجان القلب وتكتم الشكوى . ترتفع ثانية نحو السماء وتواصل الهبوط واللطم ..

.. مظلـوم !!..

يعدل عمامته ، مشتـا بها في الزحـام ، يذكرها بنداء المكروفون . تقول له :

ـ فلنذهب عبر الشارع .

يجرها بيده بعيدا عن موكب اللاطمين الحاشد المحتدم كماء يغلي في مرجل ، يصيح بلا تحفظ وسط الترديدات المنفجرة في الجو :

ـ مجنونة ستحيل العبور، ستسحقك الاقدام!

وكان رجال الموكب يغرقون في العرق والغبار وضوء الشمس ، تتلامع اجسادهـم ، نصف العراة ، كالنصال المنتزعة من اغمدتها ، متقاربين من بعض بشدة كأنما تحدهم جدران غير مرئيـة لسجن كبير ، واصواتهـم تنطلق من حناجرهم سوية بايقاع واحد كهدير لا اول له ولا اخر ..

بينا الاعادي اشتفت
واحرارنا تجنفت×
يا حسين تبعوك الاحبار !
مظلـوم !!
حسين !!

قالت : لا طريق غير هذا .

فثبت عمامته على راسه ورمى بنفسه خلفها . لاقاها شاب مفتول العضل يحيطه رجال كثيرون . انتزعت من تحت ابطها حزمة كبيرة من الاوراق ورمتها اليه . كانا قـد اصبحا وسط الموكب الكبير. صاحت بذي العمامة الذيفغر فاه متذهلا:

ـ اصرخ حتى تنفجر هنا !

وكانت الاصوات ترتفع حوابها ، رجوليه ثائرة، متعالية نحو الشرفات والغرف الكثيرة المطلة على الشارع ، تملا السماء ، كأنها الحقيقة الوحيدة التي تسبح فوق المدينة ذلك اليوم . وفي الاسفل، راحت الاوراق البيضاء تتطاير مثل الحمامات بين الايدي الكثيرة الممتدة اليها كالاغصان ■■

× تجنفت [illegible]

كتب صدرت حديثا

صدر الجزء الثالث من رباعية ابو كاطع « غنم الشيوخ » عن « منشورات الثقافة الجديدة » في بغـداد .

جو الريف بعد ثورة الرابع عشر من تموز، حيث ينتهي نفوذ الشيوخ نهائيا، وحيث ينتهي اخر بطل من ابطال الجيل الماضي « حسين ابو حمزة » ، وحيث يبدأ مرحلة الشباب والثورة .

رغم عدم وجود للجزئين الاول والثاني من رباعية ابو كاطع ، لكـن صالح ابو البينه هو بطل الجزء الثالث بكل تاكيد .

وصالح هو راعي غنم الشيوخ وواحد من اكثر المتحمسين لنظام الاقطاع ، وهو في « غنم الشيوخ » طبقة الاتباع التي حرقت الجسور بينهـا وبين الفلاحين والتي التصقت من الشيوخ بعد الثورة ، وموقعه كراع لعدة الاف من رؤوس الغنم ـ تشكل في الواقع ثروة حقيقية ـ يجعله لا يفكر مطلقـا باعـادة جسوره مع الفـلاحين اضافة الى عـدم اهتمامه كثيرا بان يعود الاقطاع ليضمن انتفاعه الكامل بهذه الثروة .

وضمن هذه الظروف يتبلور ذكاء المتنعمين في انتهاج افضل السبل لتضليل اعدائهم واصحابهم السابقين على السواء لتشديد قبضتهم على صيدهم السهل الثمين .

ومحور « غنم الشيوخ » هو مصير قطعـان الغنم هذه ، وبديهي ان كل ممتلكـات الشيوخ على الاطلاق هي نتيجة لكرس استغلال الاقطاع للفـلاحين واستمرار سرقهم ونهبهـم لحصيلة جهدهم وعرقهم ، والغنم ، او مصيرها بالتحديد هي واحدة من تلك « الممتلكات » التي يـأتي ضياعها اسقاطا واضحا لضياع حقوق الفـلاحين وسوء التصرف في مجال اعـادة هذه الحقوق الى اصحابها الشرعيين ، وبالتالي سوء تطبيق قانون الاصلاح الزراعي .

فبعد صدور قانون الاصلاح الزراعي يحـدد ملكية الشيوخ بالف دونـم فقط من الاراضي ـ وهذا يعني ضياع الاف الدونمات من ايديهـم وافلاسهم وانهيارهم ـ ، وضياع هذه المساحات الشاسعة من الاراضي جعل مصير عدة الاف من رؤوس الغنم شيئا تافها تماما ، وهذا ما حصل، واصبحت هذه الالاف ملكـا ضائعـا « والرزق الضائع يعلم الناس السرقة » . فقد وجد الجميع حلا لمشاكلهم في غنم الشيوخ ، فصالح يتقرب للفلاحين باهدائهم الخروف بعد الخروف من حصة الشيوخ بعد ان قرر تصفية هذه الحصة ببيع عدد معين كل يوم في سوق المدينة وتقليص عدد الغنم قدر الامكان حتى اذا جاء وقت الاستيـلاء كانت الضربة اقل ايلاما .

وابنه الكبير يسرق كل يوم خروفـا ويبيعه ممهدا لتكوين ثروة معقولة لحل ازمة ارتبـاطه اقتصاديا بوالده .

وابنـته تتفق مع حبيبها ويهرب له كل يـوم خروفا ليبدأ بادخار مهر لهـا بعد ان طلب ابوها مهرا مرتفعا لتزويجها به .

وابنه الاصغر يهرب كل يوم عددا من الغنـم لوالد خطيبته تحت حساب العـدد الكبير الذي طلبه مهرا لابنته .

ولعل اوضح واهم ما طرحه ابو كاطع فـي روايته هو عدم تناسب درجة اليقظة بين الفلاحين واعدائهم ، هل كان يريد ان يقول ان نشوة النصر جعلت الفلاحين يستهينون باعدائهم مما خفف حدة يقظتهم تجاههم ، فيمـا ظلت يقظة العدو حاده مائلة تتبلور كل يوم طرقـا مبتكرة للالتفاف والهروب بفئاتهم والتستر خلف الف واجهة لاخفاء وجوههم .

هل اراد ان يقول ان الفلاحين مثلوا الشيخ ضاري امام عيونهـم فلم يعودوا ليروا حاشيته والمنتفعين به ، لكن الغنـم ـ غنم الشيوخ ـ تنشر فعلا مساحات شاسعة لا تخطئهـا العين وقد عدوها بانفسهم صبيحة يوم الثورة وحذروا من التلاعب بها وهددوا ابو البينه بانهـا اصبحت « غنم الشعب » فكيف تسربت الغنم ببطء حتى اختفت هي وعائلة ابو البينه فجـاة تحت ستار الليل دون ان يشك احد بان هذه سرقة للفلاحين جميعهم ، بل انهم يحسبون نية مفرحة خمنوا انهم رحلوا ليجـدوا ارضـا اخرى اصلـح ليتفرغوا لزراعتهـا .

من خلال ردود فعل صالح ابو البينه وطريقة تفكيره وممارساته يرسم لنا ابو كاطع صورة جيدة لهذه الشريحة من الفلاحين الذين ارتبطت منافعهم بوجود نظام الاقطـاع والذين لـم يفكروا لحظـة بامكانية ان تكون الثورة لصالحهم ـ كفـلاحين ـ فقد حسموا موقفهم ضدها عن وعي كامل وربطوا اوضاعهم على اساس انتظـار عودة الاوضاع والا فالسلبية التامة .

ومن خلال المنولوجات الداخلية التي كـان يجابه بها ابو البينه الاوضاع واحاديث الفلاحين واحتمالات المستقبل نلاحظ الدرجة العـالية من اليقظة التي كان يعالج اموره من خلالها ويخطط لنفسه سبل النجاة على اساسها ، فقـد كـان واعيا لدوره وموقعه كـسارق لغنم الشيوخ وواعيا لحق الثورة فـي الاستيلاء عليهـا ، وواعيـا لدوافعه في استباق الثورة وتصفيه القطعان والاستئثار باثمانها ، وعلى اسـاس من وعيه لكل ذلـك لـم يغفل لحظة عن الاحاطه بالجو احاطه تامة ، والحرص على سماع كل مـا يقوله اعداؤه وتفسير اقوالهم واستنتاج نواياهم ، والمؤلـم ان كل استنتاجات ابو البينه هي مـا كان يجب ان تكون عليه الامور بالضبط فلماذا لـم تكـن هنالك يقظة مقابل يقظته .

ويبرز ابـو كاطع فـي « غنم الشيوخ » دور الشباب الحزبي في توعية الفلاحين بمهماتهم تجاه الثورة واخذ زمـام المبادرة في استلام السلطة في محاولة لدحض الفكرة التي كان يروج لهـا الاقطاع دوما في ان الفلاحين لن يستطيعوا انجاز اية مهمة دون قيادة الشيوخ او « الفلاح لا يعمل بغير عصا الاقطاعي » ، فلـم ينتظـروا تنفيذ الاستيلاء واعادة توزيع الاراضي ، بداوا بتنظيف التربة لتهيئة الفلاحين استلام مسؤولياتهم الى جانب نضال يومي مستمر لمحاربة النزعة العشائرية واحلال مفهوم النضال الطبقي محـل العشائرية التي لـم تكن من السهل محاربتها في جو التخلف وشماتة الاعداء وتربصهم، واقتناصهم الهفوات لتشويه الثورة ، الى جانب النقص في الكوادر الواعية القادرة على تعبئة الريف كله لمواجهة احتمالات انتعاش الفكر المضاد للثورة ، وقد برز هذا النقص في استحـال كل فلاح اسم اللا نعمة حين يريد تفسير قانون الاصلاح الزراعي، فكثرت التفسيرات ولكن احد لـم يفهم بالضبط ما هو الاصلاح الزراعي .

لا شك ان الجزء الرابع قد صدر ، واذا كان ابو كاطع سيلاحق ابو البينه و « فلوسه » فهل لان ابو البينه اول فلاح ترك الارض بعـد الثوره الى المدينة ؟.. اعتقد ان الرباعيه لا يمكـن ان تنتهي دون ملاحقة الوف الفلاحين الذين انتهوا الى المدن ، والى بغداد بالذات ، ودون المرور في لقطة ولو سريعه للارض التي اكل اشراقتها الملح بعد ان هجرها عرق ابنائها لتصب هنـالك على اسفلت شوارع العاصمة ■■